ماذا في «دروب الحرية»؟

بقلم موريس كرانستون
ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

تعد « دروب الحرية » (١) نوعا من الزخرفة ، يقصد بها اعطاء صورة اجمالية لطرق الناس المختلفة للحرية، لكنها تموج بتنوع الاساليب، هذا وقد تركها سارتر دون أن يتمها . وقد ظهر الجزءان الاول والثاني « سن الرشد » و « وقف التنفيذ » عام ١٩٤٥ ، وظهر الجزء الثالث « الحزن العميق » عام ١٩٤٩ ، وفي نوفمبر وديسمبر من السنة نفسها نشر سارتر في مجلته « الازمنة الحديثة » فصلين عنوانهما : « صداقة عجيبة » من الجزء الاخير المنتظر . ثم أعلن سارتر بعد هذا أنه لن يكتب فيها المزيد مطلقا .

ويمكن للجزء الاول « سن الرشد » أن يكون رواية قائمة بذاتها ونكون كاملة . ففيها بطل هو ماتيو أفضت به تجاربه المركزة في خلال أيام قليلة من مجموعة اوهام عن الحرية الى مجموعة أخرى وكلها سخيفة . أما الجزء الثاني « وقف التنفيذ » فهو نوع آخر من الرواية . لقد أقام الرواية على نسق التكنيك « الواقعي » الامريكي عن جون دوس باسوس ، وهي محاولة لنقل تاريخ أسبوع ميونخ في فرنسا عن طريق « مونتاج » لردود أفعال أناس مختلفين ، وهو يقطع بسرعة ـ وقد يكون هذا أحيانا في الجملة نفسها ـ ما يقال وما يفكر فيه شخص من الاشخاص الى ما يقال وما يفكر فيه شخص آخر ، وينتقل من الاشخاص الروائيين أمثال ماتيو الى الناس الواقعيين أمثال شامبرلين ودالاديبه . فاذا تذكرنا ما قاله في « ما هو الادب ؟ » فاننا ننتقل من « وعي انسان الى آخر ». ومع هذا ففي الجزء الثالث « الحزن العميق » ينتقل المؤلف الى التكنيك الاشد ، اقناعا والذي نراه في « سن الرشد » لكي نركز انتباهنا مرة أخرى على مصائر جماعة صغيرة من أصحاب النزعات الخيالية . والشذرات المنشورة من الجزء الرابع الناقص ليست الا امتدادا للقسم الاخير من « الحزن العميق » .

لقد قلت ان ماتيو هو « بطل » الكتاب الاول ، لكن من الخطأ الاعتقاد انه الشخصية التي يتعاطف معها أو يعجب بها سارتر بصفة خاصة ، ولا يجب أن نظل نعتقد أنه شخصية تمثل سيرة حياة المؤلف . لقد فعل النقاد هكذا ، فتجد الاستاذ شترن (٢) Stern يشير الى « ماتيو ـ سارتر » وحتى الآنسة موردوخ تقول عن ماتيو : « مما لا شك فيه انه صورة مصغرة من سارتر » (٣) . وفي الحقيقة ان ما في سارتر في ماتيو اقل بكثير مما في سارتر في روكانتان . (٤) حقا ان ماتيو ـ شأنه في هذا شأن سارتر ـ مدرس فلسفة ثم يصبح جنديا ، بل كل منهما أكثر من محارب ، لكن لا يوجد أي تطابق بينهما . وفي الواقع هناك نوع من التهكم في الطريقة التي يجعل بها هذا المدرس للفلسفة أحد المصابين بخداع الذات دون بقية شخصياته الاساسية .

عندما تبدأ الرواية ، تخبره عشيقته مارسيل أنها حامل ، ويمضي الثماني والاربعين ساعة التالية يحاول أن يجد نقودا يدفعها من أجل عملية الاجهاض . وهو يدقق للغاية حتى لا يدعها تذهب الى امرأة عجوز فذرة تستعمل الطرق البدائية ، وهو كذلك مصمم ضد فكرة الزواج بمارسيل حتى تنجب الطفل . ورغم أنه يحس بأنه شاخ وهو في الرابعة والثلاثين ، فهو يعتقد ان الزواج سيقضي على حريته ، لانه يتصور نفسه رجلا مستقلا للغاية . تقول له مارسيل ذات يوم : « أنت تريد أن تكون حرا ، حرا حرية مطلقة . وتلك هي رذيلتك » . فيضايق ماتيو ، لقد شرح لها آراءه عن الحرية مئات المرات من قبل ، وهي تعلم أن هذا أحب شيء لديه . لكنها تقول له ثانية : « تلك هي رذيلتك » .

ويسمع ماتيو عن طبيب يعد نجدة يمكنه أن يجري العملية مقابل أربعة آلاف فرنك ، فيتوجه الى أناس مختلفين ـ أمه ، أصدقائه ، مكتب القروض ـ مصمما على الحصول على النقود ، لكن باءت محاولته في اقتراض المال بالفشل . وفي لمسة تهكمية رائعة ، يجعل المؤلف أخا ماتيو البورجوازي المتباهي المسمى جاك (وهو نموذج عند سارتر يمثل « الخنزير ») يتلفظ ببعض الحقائق الهامة . يقول جاك لماتيو: « لو كانت لي آراؤك ، فسأنزه نفسي عن طلب المعروف من شخص بورجوازي ملعون. انني شخص بورجوازي ملعون ... وزيادة على ذلك أنت يا من تحتقر الاسرة ، انما تقضي على الروابط الاسرية وأنت تقترض مني » . فيحاول ماتيو أن يبرر نفسه :

يقول ماتيو : « أصغ الي ، فهنا سوء فهم ، أنا لا أعبأ الا قليلا بما اذا كنت بورجوازيا أم لا . كل ما اريد هو ـ » وهو ينطق الكلمات الاخيرة من خلال أسنان مطبقة وفي نوع من الخجل ـ « أن أسترد حريتي » .

يقول جاك : « كنت أظن أن الحرية قائمة في المواجهة الصريحة للمواقف التي ينفذ اليها المرء حامدا ، ويتقبل مسؤولياته ... وأنت على أية حال ، قد بلغت سن الرشد يا عزيزي ماتيو المسكين » يقول هذا في لهجة شفقة وتحذير: « لكنك تحاول ان تروغ من هذه الحقيقة للغاية، أنت تحاول ان تتظاهر بأنك أصغر سنا مما أنت عليه . حسنا ... ربما أكون قد ظلمتك ، فربما لا تكون في الواقع قد بلغت سن الرشد ، فهذه السن سن أخلاقية ... ربما أكون أناقد بلغتها أسرع مما بلغتها أنت » .

وكما لو كان ماتيو يريد أن يبرهن على وجهة نظرة أخيه ، أخذ يعزي نفسه بأن ينغمس في صحبة الشباب الفض . فبدأ يخرج مع فتاة روسية بيضاء في الثامنة عشرة ، أسمها بايقيش وأخيها بوريس المصاب بداء السرقة ، وكان أحد تلاميذه . ولا تنفك ايقيش تحاول ان تجتاز امتحان الجامعة ، أما بوريس فهو في التاسعة عشرة وهو أشد ادراكا لشبابه وقد أغرته لولا وهن مغنية هرمة في ناد ليلي . وقد ذهب

---

* .. هذا الجزء اقتطعته من الفصل السابع من كتاب موريس كرانستون : « سارتر » الذي ظهر لاول مرة عام ١٩٦٢ عن دار Oliver & Bayed ضمن سلسلة « الكتاب والنقاد » والذي آمل ان اصدر ترجمته العربية قريبا .

(١) ظهرت الترجمة الكاملة للرواية عن دار الآداب من ترجمة الدكتور سهيل ادريس ، وقد احتفظت بترجمته لعناوين الرواية . أما النصوص داخل المقالة فهي من ترجمتي استنادا الى النصوص المترجمة الى الانجليزية الواردة في تضاعيف الكتاب المذكور .

(٢) يشير المؤلف الى الفريد شترن في كتابه : « سارتر : فلسفته وتحليله النفسي » (المترجم) .
Stern, A. : Sartre , His Philosophy & Psychoaulysis

(٣) كتاب اريز موردوخ : « سارتر العقلي الرومانتي » Murdoch, S. : Sartre, Romantic Rationalist وقد ترجم محمود رجب الفصل الخاص بدروب الحرية من الكتاب في مجلة الاداب عدد مارس ١٩٦٢ (المترجم)

(٤) بطل رواية سارتر الاولى : « الغثيان » (المترجم) .

الجميع الى ملهى ، فكانت صحبة من أربعة أشخاص تثير الشجن . وماتيو شغوف بأن يؤكد حريته في حضور بايفيش ويردد أقوال « جيد » عن « الافعال المجانية » Actes Gratuits اي الاتيان بالافعال التي ليس لديه دافع معقول لها كأن يطلب الشمبانيا التي يكرهها وأن يغرز سكينا في يده . وسارتر بالمثل يكشف عن سخف مثل هذه الافعال ، وخاصة سخف فكرة جيد من أن السلوك الذي من هذا النوع ليس بأية حال من الاحوال تأكيدا للحرية .

وذات صباح يأتي بوريس الى ماتيو وايفيش اللذين يجلسان في مقهى ، ويقول بأن لولا قد ماتت وهي نائمة معه ، فهرب في هلع ، وهو الآن قلق بصدد استرداد الخطابات الغرامية التي كتبها لها . فيتطوع ماتيو أن يذهب من أجلهما . وبينما هو ينقب في حقائب لولا يجد ماتيو بعض الاوراق النقدية . وهنا أخيرا يجد فرجا لدفع أجر عملية أجهاض مارسيل . لكن ماتيو يشك طويلا في أن لولا لم تمت وانما هي تحت تأثير مخدر ولسوف تستيقظ . وأخيرا تنتاب ماتيو حالة من الشجاعة ويرتد ثانية فيسرق النقود .

وفي الوقت نفسه كانت هناك تطورات أخرى . فان صديق ماتيو الخبيث المصاب بالجنسية المثلية دانيال قد رأى مارسيل وأثر فيها بأنها تريد الطفل حقا . وهكذا عندما يظهر ماتيو في شقة مارسيل ومعه النقود من أجل عملية الاجهاض تثور ضده وتطرده من الشقة . وقيل لماتيو الآن ان دانيال سوف يتزوج مارسيل . ودانيال مستعد أن يعترف ببنوة طفل ماتيو على أنه طفله . وهو يؤكد لماتيو أنه رغم اصابته بالجنسية المثلية ، الا أنه سوف « يقوم بواجباته كزوج » .

وسرعان ما يجد ماتيو نفسه وحيدا فان ايفيش التي تحتقره كثيرا كما تحتقره مارسيل تفشل في امتحاناتها وتذهب الى الريف . وينتهي الجزء الاول بهذه الكلمات .

« راقب ماتيو دانيال وهو يختفي ، وفكر : « لقد بقيت وحيدا » . وحيدا لكنني أزداد حرية عن ذي قبل . لقد قال لنفسه في الامسية السالفة : « آه لو لم توجد مارسيل ! » لكنه وهو يقول هذا انما كان يخدع نفسه : « لم يتدخل مخلوق في حريتي ، لقد جففتها حياتي » . واغلق النافذة وارتد الى الحجرة . ولا يزال عبق ايفيش يحوم في الهواء . استنشق الهواء وتذكر هذا اليوم العاصف . « جعجعة ولا طحن » .

هكذا فكر . لا شيء : لقد منحت له الحياة من أجل لا شيء ، انه لا شيء ومع ذلك فلن يتغير : انه كما خلق ... تثاءب : لقد انهى يومه وكذلك انتهى من شبابه . لقد قدمت الاخلاقيات الحسنة المختلفة خدماتها له في خداع ـ الابيقورية الواعية ، التسامح عن طريق الابتسامة ، الاذعان ، الحس المشترك ، الرواقية ـ قدمت له كل المعاونات التي يستملحها الانسان ، دقيقة بعد دقيقة ، كحكم قاس على فشل الحياة ... تثاءب ثانية وهو يكرر لنفسه : « حقا ، حقا للغاية : لقد بلغت سن الرشد » .

وتبرهن حوادث الجزءين التاليين لانتهاء « سن الرشد » على أنها مليئة بالتهكم . فلا يزال ماتيو يخدع نفسه ، لا يزال يبحث عن الحرية في أن يظل غير ملتزم ولا يزال يعتقد أنه « كما خلق » ، انه النظام ، هذا كل ما هناك ، ولم يعد أشد تعقلا . وظل حائرا كالابد . فـ « يقرر » أن يذهب ليقاتل في اسبانيا ، لكنه لا يذهب الى هناك مطلقا ، وكان على وشك أن « يضاجع زوجة أخيه أوديت التي تحبه ، لكن أوراق تجنيده التي أرسلت أثناء أزمة ميونخ تستدعيه « في التو » . وعندما كان يعبر مركز نيف « يقرر » أن ينتحر ، لكنه يعدل عن قراره ويقول : « ربما في المرة القادمة » .

ويصل ماتيو الى فرقته ، وفي الجزء الثالث « الحزن العميق » الذي تدور حوادثه في مايو ويونيو عام ١٩٤٠ نجده في الجبهة . ويهجر الضباط فرقتهم أثناء زحف الالمان ، والناس الذين دمروا أخلاقيا ولا يفكرون الا في العودة الى بيوتهم يسكرون وهم ينتظرون الهدنة . ثم يبدو في القرية التي تعسكر فيها فرقة ماتيو فصيلة عسكرية من الطراز الاول في آلاي شاسير . ولقد استهوت ماتيو وصديقا له من العمال صفاتهم العسكرية فاستمالوهما لكي يسمحوا لهما بالالتحاق بالفرقة في برج كنيسة حيث يبذلون آخر محاولة للصمود في وجه العدو .

وهناك في البرج ، حيث قدر أن يقضي الالمان على ماتيو ، نجده وهو الذي لا يتأثر ، أمامه ساعة أخيرة من العمل البطولي :

« لقد شق طريقه الى السور ، ووقف هناك يطلق النار . كان هذا انتقاما على مستوى كبير . كل طلقة من طلقاته انما تنتقم لشك من شكوكه القديمة . « طلقة من أجل لولا التي لم أستطع أن أسرقها ، وطلقة من أجل مارسيل التي كان يجب أن أخلو بها ، وطلقة من أجل أوديت التي لم ارد ان اقبلها . وهذه الطلقة من اجل الكتب التي لم اجرؤ ان اكتبها وهذه من أجل النزهات التي لم أقم بها اطلاقا ، وهذه من أجل كل واحد بصفة عامة ممن أردت أن أكرهه وحاولت أن أفهمه » . أطلق النار وكانت الالواح تتكسر من حوله . سوف تحب جارك كحبك لنفسك ـ طلقة ! في وجه هذا اللوطي ، أنت لن تقتل ـ طلقة ! في خيال المآته هذا المقابل . كان يطلق على الناس ، على الفضيلة ، على العالم كله . الحرية هي الرعب ... . لقد كان رأسه ملتهبا . كانت الطلقات تنطلق حوله مرة في الهواء . « ان العالم يشتعل وكذلك أنا معه ... واستمر يطلق الرصاص. لقد اطلق الرصاص . لقد اغتسل..انه قوي للغاية، انه حر».

وربما يسيء الواحد منهم مقاصد سارتر عندما انتهى بماتيو الى هذه النهاية . ان الجو العام لهذا القسم من الرواية هو جزء « بطولي » تماما . ان جبن اولئك الذين لا يريدون أن يقاتلوا . انما يظهر من خلال عيون حادة وقحة . من الواضح أن الصفات العسكرية للآلاي قد ذكرت كموضع باعجاب ، وفي موت ماتيو هناك أثر خفيف فج من كبلنج أو فيلم عن الحرب من أفلام هوليود . وعلى أية حال كما أشار فيليب تودي ناقد سارتر الدقيق ، فان ماتيو ليس المقصود به أن يكون « بطل القتال الذي يصنع الخير » ، ان المقصود به أن يكون تجسيدا لما أسماه هيجل (الحرية المرعبة) » (١) ويموت ماتيو وهو « يعسف » أنه حر في النهاية ، لكن هذا الموت في عين المؤلف ليس الا آخر أخطاء ماتيو العديدة. فليس حقا عند سارتر ان«الحرية هي الرعب» . وهكذا فان ماتيو الذي تأمل كثيرا في الحرية واهتم بها للغاية ، قد مات في شجاعة، لكن دون أن يكشف حقا ما هي الحرية .

أما البطل المحوري الآخر عند سارتر في « دروب الحرية » فهو دانيال ، وقد ترك المؤلف مشكلته الرئيسية دون حل . فدانيال لوطي . أو هو ليس لوطيا في عين نفسه ، انه لوطي في عيون الاخرين . فهو من جهة يريد أن ينكر جنسيته المثلية ويتظاهر بأنه مجرد شخص « مختلف » عن الاخرين . ومن جهة أخرى ، حيث أنه لا يستطيع أن يهرب من كونه يرى باعتباره شخصا عنده جنسية مثلية ، وأن نظرة « الآخر » تجسده هكذا ، فهو يتوق أن يصبح جنسيا مثليا كما يصبح الشيء المادي شيئا ، وأن ينهي شعوره بالاثم عن طريق التخلص من مشاعره جميعا . فهو يتوق أن « يصبح حجرا ، بلا حركة ، بدون شعور ، أعمى ... أن يصبح لوطيا كما تكون شجرة الباوط شجرة بلوط . أن ينطفيء . أن يغلق عمقه الداخلي » . لكن لا يتحقق حلم دانيال بطبيعة الحال . الوعي لا يمكن الا أن يكون وعيا ؟ الانسان لا يستطيع الا أن يكون ذاتية Subjectivity تخطيا Transcendence وجودا لذاته .

وهكذا يسير دانيال في طريق حياة اللوطي الشاعر بالاثم ، وهو يعاقب نفسه (لو أمكن استعمال هذا التعبير الفرويدي في تلخيص قصة سارترية) ويعاقب الاخرين . لكن جهود دانيال في معاقبة نفسه غير ذات أثر . لقد صمم على قتل القطط التي يحبها ثم يعدل ، وهو يقرر أن يخصي نفسه ثم يعدل . وهو يمضي في زواجه بمارسيل (نكاية في

---

(١) مقتبسة من كتاب فيليب تودي : جان بول سارتر ، دراسة أدبية وسياسية (المترجم)
Thody, P. : Y.P. Sartre, A Literary & Political Study

ماتيو) لكن وهو في شهر العسل معها ، يتمرد على جسدها الانثوي ، ويثيره جسد ذكر شاب هو جسد بستاني ، فيتركها . ان اثم دانيال يعبر عن نفسه ايضا على شكل الحكم الشامل المليء بالغرور على سلوك الناس الآخرين بما في ذلك رفاقه من أصحاب الجنسية المثلية .

وهناك منظر فريد في الصالون الذي يصور تكوين دانيال السيء من ناحية العقيدة والنظرية السارترية عن « النظرة » . يذهب دانيال الى الصالون ولديه النية على انتقاء شاب من الشبان الذين يترددون هناك ، ينتقيه بنقوده . وبينما هو يفحص الفلمان في استمتاع ، يدخل رجل غريب مسن الى المكان ويكون صداقة سريعة مع أحدهم . فيشعر دانيال أنه « قد استشاط غضبا حارقا » ضد القادم الجديد ، ويقرر أن يعاقبه . فيقرر أن يتبعه عندما يرحل ، يتصور جمال الفكرة لو أصبح مخبرا ويستجوب الرجل عن اسمه « ويرده الى حالة من الفزع » وبينما هو يتلذذ بالفم الذي سيعانيه ضحيته ، يسمع أحدهم وهو يخاطبه من ورائه بأنه أحد عشاقه السابقين ، بوبي ، وكان يراقبه من غير أن يراه أحد . وعندما يصل اليه بوبي ، يستدير الرجل العجوز ويتطلع ، وعندما يرى دانيال واقفا هناك مع شاب فظ بجانبه ، يبتسم ابتسامة العارف . فيضطرب دانيال غضبا أكثر من ذي قبل . يقول دانيال لنفسه وهو أشد اضطرابا : « لقد حدث ورآني مع هذا الغلام واعتبرني مبتدئا » . ان دانيال يكره ما يسميه « مبولة الاخاء الماسوني » : « انه يتصور كل واحد فيها . انني افضل ان اقتل نفسي في التو على ان ابدو كهذا اللوطي العجوز » .

ونحن نجد أن دانيال خلال نزعته السيئة يتحول الى المسيحية ، لكن دينه لا يكون الا مجرد تدليس ، شأنه في هذا شأنه في الزواج . وتأتي لحظة ابتهاجه أخيرا مع سقوط فرنسا . وعندما يعود الى باريس ويرى كل شخص تقريبا يهرب في ذعر أمام زحف الالمان ، يعيش دانيال تجربة فرح برضاء حقيق :

« لقد ظل عشرين سنة تحت المراقبة . لقد كان هناك جواسيس حتى تحت سريره . وكل عابر سبيل كان شاهدا على محاكمته ، كان قاضيا ، او كان الشخصين ، كل كلمة يقولها تستعمل كقرينة ضده . والا ، في لمحة ـ الهرب » .

ان الناس الذين حكموا على دانيال بأنه لوطي يبدون في حالة هرب تام ، لقد انزاح عبء كبير عنه . لقد انهزم الآخرون . ويبتسم دانيال لرؤيته الجنود الالمان الملوحي الوجوه الانيقين عندما تحملهم العربات الى الشوارع المهجورة . انه يتجول حتى نهر السين ، وهناك ـ بالصدفة ـ يواجه شابا فرنسيا جميلا هو فيليب ، وهو من المسالمين المحظوظين ، وكان على وشك الانتحار . وقد أغرى دانيال فيليب عن طريق صبره اللوطي الطويل أن يفيء رأيه ، وهو الآن يتألق بلا غم وفي أعماقه الوسائل الفنية القديمة لهتك العرض ، فيأخذ دانيال فيليب الى شقته ، ويستعد لمزاولة الجنسية المثلية معه وذلك عن طريق تعليمه كيف يكون حرا . ويسأله فيليب كيف يمكن أن يعلمه الحرية .

« قال دانيال وله مظهر المضطرب المرح : « يجب أن نبدأ باذابة القيم الخلقية . هل أنت طالب ؟

قال فيليب : « كنت طالبا » .

ـ القانون ؟

ـ كلا ، الآداب .

ـ هذا أفضل ، في هذه الحالة ستكون قادرا على فهم ما سأقوله لك : الشك المنهجي ـ هل تبينت ما أعنيه ؟ « التحلل المتعمد » الذي كان عند رامبو يجب أن نبدأ عملية تحطيم كاملة ، لكن لا عن طريق الاقوال ، بل عن طريق الافعال . كل شيء اقترضته من الآخرين سوف يتلاشى في الهواء » .

وهذا هو اخر ما نسمعه عن دانيال وفيليب ، لكن يمكن ان نفترض أن علاقتهما سوف تتطور وتنتهي كما تطورت وانتهت العلاقة بين لوسين الشاب وبرجر اللوطي في قصة سارتر القصيرة الاولى « طفولة زعيم » حيث أن تجربة البطل المصاب بالشذوذ لا تجعله يريد شيئا أكثر من أن يكون سويا ومن ثم ينتهي الى فاشي بورجوازي . ومرة أخرى ، يمكننا ان نتيقن أن أي نوع من الحرية التي يمكن أن يتعلمها فيليب من دانيال ستكون سخرية أشد من أي شيء يعتقد ماتيو أنه قد أحرزه .

وبجانب دانيال وماتيو ، هناك شخصية تقوم في جزء من أجزاء « دروب الحرية » والتي يكون « طريقها للحرية » مهما للغاية ، رغم أن طريقها يبدو زائفا . هذه الشخصية هي برونيه ، وهو عضو متحمس مكرس حياته في الحزب الشيوعي . وهو من الناس الذين يعتقدون ان مشكلة الحرية تحل بالتحديد الماركسي للكلمة على أنها « التعرف على الضرورة » وفي اول الرواية يحاول برونيه أن يغري ماتيو على الالتحاق بالحزب الشيوعي . يقول له برونيه : « لقد نبزت كل شيء لتصبح حرا . خذ خطوة أبعد ، انبذ حريتك وسوف ينضاف كل شيء اليك » .

والسياسة بحر سهل عند برونيه أثناء سنوات الجبهة المتحدة ضد الفاشيست ، بل وحتى بعد تكوين الحلف النازي السوفييتي ، فهو يستمر يعتقد ـ دون تمحيص ـ في حكمة الزعماء الشيوعيين . انه كجندي يسمح لنفسه بأن يؤسر عى يد الجيش الالماني الزاحف ، ثم يبدأ تنظيم خلية شيوعية في معسكر الاعتقال . ان ما يكربه هو بحث الذات الفردة وعدم وجود دعامة عند الجندي الفرنسي المتوسط ، وهو لا يصبر على أن يبدأ الالمان ابادتهم حتى يمكن اعادة الروح المعادية للنازية .

ويلتق برونيه في معسكر الاعتقال بمثقف غامض اسمه شنيدر ، ويكون معه صداقة ، وهو شخص يبدو عليه أنه يعرف كل شيء عن الشيوعية ، وهو يحاول أن يحط من شأن عقيدة برونيه في قيادة الحزب . واكثر من ذلك ان تنبؤت شنيدر عن التطورات السياسية تحققها الاحداث . وعندما ينكشف مدى التحالف الروسي الالماني ، وتعود جريدة « ألاومانيته » الى الظهور بتصريح من النازي ، تضيع جميع جهود برونيه في خلق حركة معادية للنازي في المعسكر . ويظهر لنا شنيدر على أنه فيكاريوس ، وهو كاتب شيوعي معروف للغاية ترك الحزب احتجاجا ضد التحالف النازي السوفييتي . ويبذل برونيه قصاراه كي يتلاءم مع الخط الحزبي الجديد ، لكن ارتباطه العاطفي بشنيدر ـ فيكاريوس قد أصبح الآن عظيما حتى أنه يقرر أن يشترك معه في الهرب. وهناك شيوعيون آخرون في المعسكر ـ على أية حال ـ يشون لدى الالمان ، فيطلق الرصاص على فيكاريوس وهو يحاول أن يهرب . ويموت بين ذراعي برونيه :

« يقول فيكاريوس : « الحزب هو الذي اغتالني » .

غمغم برونيه : ليته لا يموت . لكنه يعرف أن فيكاريوس على وشك أن يموت ... لا توجد قوة للانسان تستطيع أن تواجه هذا العذاب المطلق . انه الحزب وقد قتله . حتى لو كسبت جبهة الاتحاد السوفييتي ، فان الناس وحيدون . لقد تعلم برونيه المزيد ، لقد غاصت يده في شعر فيكاريوس القذر، وصاح كما لو كان يريد أن يخفف الرعب، كما لو كان في استطاعة رجلين ضائعين يمكن في اللحظة الاخيرة أن يقهرا الوحدة .

« الى الجحيم أيها الحزب ! انك انت صديقي الوحيد »

فيكاريوس لم يسمع ... »

ان فيكاريوس ميت . وتتوقف الرواية وبرونيه يرتد الى الحراس الالمان ، ويتأمل مدى اليأس الذي ينتظره . ونحن نترك برونيه ـ كما نترك روكانتان ـ على حافة النجاة . لكننا لا نعرف شيئا عن مستقبله . وخلال الرواية حتى المنظر الاخير مع فيكاريوس ، يجسد برونيه ـ كما بين سارتر ـ نوع الانسان الذي هرب الى القيم الجاهزة للحزب الشيوعي كمهرب من عذاب الاختيار الاخلاقي .

وهكذا يمكننا أن نقول عن رواية سارتر « دروب الحرية » التي لم تنته أنه ولا درب من « دروب الحرية » التي يسلكها أشخاصه العديدون في رأيه هو الطريق الصحيح ، رغم أن القارىء ربما تعلم شيئا عن طريق عملية معارضة واستبعاد هذا الاتجاه الذي يعتقد سارتر بالفعل أنه يقع فيه طريق الحرية .

القاهرة

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد